الإسلام والاستشراق

لقد مر الاستشراق في الآونة الأخيرة بمرحلتين[1]:

الأولى - بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر، حتى بدايات القرن العشرين (الهجمة على الإسلام)، والثانية - أوائل القرن العشرين، وما تزال مستمرة حتى الوقت الراهن (الميل إلى الاعتدال).

ففي المرحلة الأولى كان الاستشراق التمهيد المعرفي للاستعمار والمقدمة له.

أما في **المرحلة الثانية** فقد جنح الاستشراق نحو شيء من الاعتدال والإنصاف.

والخلاصة: إن دسائس المستشرقين في المرحلة الأولى على الإسلام والمسلمين كانت حاقدة بعيدة عن الموضوعية، أمثال كتابات (دوزي) و(رينان) و(جولدزيهر) اليهودي الأصل، و(دائرة المعارف البريطانية).

وأما نتاجهم في المرحلة الثانية فلا يزال يحتاج إلى دراسة وتأمل، وما زال المستشرقون بنحو عام مفتقرين إلى النزاهة العلمية والموضوعية، والتجرد عن التعصب والحقد والاستخفاف بالمسلمين.

والمستشرقون طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق.

وطبيعة الاستشراق المتعلقة بنا هي دراسة العلوم العربية والإسلامية، وكانت في بداية أمرها محاولة انفعالية لتصوير الإسلام والبلاد الإسلامية بصورة

---

(١) الموسوعة الإسلامية الميسرة، بإشراف د. محمود عكام ١/ ٢٩٦-٢٩٧.

obeikandl.com

مشوَّهة، وباعثهم الأول هو العداوة التي أحدثها اختلاف الدين بسبب ما تركته الحروب الصليبية وراءها، ولكن المستشرقين لم يعتمدوا في دراسة الدين في مراجعه الوثيقة دراسة مخلصة نزيهة، تعتمد على الأسلوب العلمي الصحيح، وإنما كانت رغبة جامحة في التشفي والنيل من مكانة الإسلام ورسوله، ولم يكن يعنيهم البحث عن الحقيقة، وإنما كان همهم الطعن، ودوافعهم الانتقام، فقاموا بإصدار مقالات في العقائد الإسلامية، وعلوم الشريعة من القرآن والحديث، وكذا السيرة والتاريخ، والآداب في العلوم العربية[١].

وأسلوب المستشرقين إما هجوم كاسح مباشر على الإسلام والعرب، وإما مغلَّف على الطريقة الغربية بتقديم شيء من المديح الظاهري للإسلام، ثم بث الشكوك والنقد والاتهام، ومحاولة إبطال الدين كله، وتوهين العقيدة أو تشويه الشريعة، وأخيراً سمعنا في سلطنة عُمان في ندوة تطور العلوم الفقهية في عُمان (الفقه الإسلامي والمستقبل) بتاريخ ٤-٧/ ٤/ ٢٠٠٩ أن القرآن لم يشتمل على شيء إلا أربع آيات تؤيد ما جاء في التوراة والإنجيل. ورغبتهم الجامحة في التجريح كثيراً ما حملتهم على تصيُّد روايات ضعيفة، وأسانيد منبوذة، لتحقيق أغراضهم المشبوهة والخبيثة، وذلك عن طريق روايات في كتب الأدب والتاريخ عارية عن الصحة ومدسوسة، وقد يعتمدون على تأويلات ودلالات واهية، مما يدل على أن الانحراف العلمي والمنهج المتخبط والاستنباطات المبينة سلفاً هي ديدنهم، وهذا يؤدي إلى انهيار الثقة بآرائهم ونظرياتهم غير الموثقة، مما يوجب الحذر منها، بل إهمالها نهائياً، وإن كان لا بد من كشف زيفها ومواضع الضعف فيها، وزعيم هؤلاء جولدزيهير اليهودي الأصل، ولا ينطبق هذا الحكم على جميع المستشرقين، فبعضهم يحترم نفسه ودراسته المتحررة من أثر العواطف الدينية، مثل أرنولد في كتابه العظيم (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

(١) المستشرقون والإسلام للدكتور إبراهيم عبد المجيد اللبان، ص٤-٧، ٢٦.

قال الأستاذ (برنار لويس): «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[١].

وقال الأستاذ (جب) في كلامه عن بحوث المستشرقين: «لقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفوذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين، بدل السطحية غير الناضجة التي اصطبغت بها دراساتهم السابقة».

ومن أمثلة مواقف المستشرقين موقفهم من القرآن لسببين[٢]:

الأول: أنه أنموذج حي لانحرافهم العلمي.

الثاني: أن التعرض للقرآن بقصد المساس بصحته قد تكرر في السنوات الأخيرة.

وموقف المستشرقين من القرآن من ناحيتين: ناحية مصدره، وهل هو وحي سماوي أو أنه أثر بشري، وهذا يشبه موقف الوثنيين العرب الذين خافوا أن يستقر في النفوس أن القرآن وحي من عند الله تعالى، فيصبح قبول الإسلام نتيجة منطقية، مثل قبول النساء البريطانيات الإسلام في وقتنا الحاضر مما يؤدي إلى ذعر الغربيين من انتشار الإسلام.

والرأي السائد في دوائر المستشرقين هو أن الرسول محمد ﷺ مؤلف القرآن، وأنه ليس وحياً سماوياً.

وإنهم يلجؤون إلى التشكيك في صحة القرآن المنزل وحياً، وإثارة الشبهات حوله، وباعثهم على هذا الهجوم هو روح الانتقام.

وقد ركّزوا جهودهم في السنوات الأخيرة حول القراءات بوجه خاص، وهذا ما تبناه المستشرق الفرنسي المشهور (بلاشير) في كتابه (المدخل إلى القرآن).

---

(١) العرب في التاريخ ص٦٣، في الترجمة العربية.

(٢) د. اللبان، المرجع السابق ص٤١.

obeikandl.com

وهذا من أخطر النظريات التي تجعل تحديد النص بحسب هوى كل إنسان، باعتماد المتن دون الإسناد، فهو يتنافى مع كون القرآن وحياً من عند الله إلى رسوله بلفظه ومعناه، ويدل على أن المستشرقين ليسوا طلاب حقائق.

وكذلك موقفهم من قبول الأحاديث الضعيفة ينافي قواعد المنطق الأولية في منهج البحث التاريخي[١].

والخلاصة: إن مهمة المستشرقين الأولى هي دراسة العلوم الإسلامية والعربية كطلاب كل العلوم والآداب في البلاد الإسلامية، ولكن ليس هدفهم مجرد المعرفة والتحصيل، وإنما خدمة التبشير بالمسيحية، أو لدوافع أو بواعث الاستعمار، ومن أنشطتهم ترجمة القرآن إلى لغات أجنبية ليشككوا الناس في معاني القرآن بحسب ما وضعوه من تراجم هزيلة وسيئة.

وقد تصدى لأباطيل المستشرقين أعلام ثقات مشاهير مثل الشيخ محمد عبده في الرد على المستشرق الفرنسي (هانوتر) في كتابه (الإسلام والنصرانية إزاء العلم والمدنية) والأستاذ محمد فريد وجدي والأستاذ عباس محمود العقاد في مصر، ورحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) الذي دحض به أضاليل المبشرين والمستشرقين.

(١) المرجع السابق، ص٤٣-٥٦.